قبة الصخرة

للأستاذ / يحيى مصطفى عبد المجيد

تعتبر قبة الصخرة من اقدم وابدع العمائر الاسلامية الباقية حتى الآن ، وهي درة الفن المعماري الأموي ٠

وقد أمر ببنائها « عبد الملك بن مروان » عام ٧٢هـ ـ ٦٩١م ، وترجع الأهمية المعمارية لقبة الصخرة بالنسبة للعمارة الاسلامية لعدة أسباب منها :

اولا : ان قبة الصخرة هي المبنى الاسلامي الوحيد الذي صمم ليكون مزارا وجاء تصميم المبنى بهذا الشكل ليلائم الطواف حول الصخرة المشرفة ٠

ثانيا : يوجد في النصف الشرقي من الضلع الجنوبي للمثمن الخارجي من المبنى محراب مجوف ويعتقد أن هذا المحراب هو أول محراب مجوف في العمائر الاسلابية ومن المعتقد أيضا أن اتخاذ المحراب في المساجد للدلالة على جهة الكعبة مأخوذ عن حنية الهيكل في صدر الكنيسة ٠

ثالثا : لأول مرة تستعمل القبة في المسجد ـ وهي التي كانت مستعملة في الكنائس المسيحية ، وفي أبنية الرومان والبيزنطيين ٠

رابعا : استعمال الأعمدة ذات التيجان والأقواس النصف دائرية في العمائر الاسلامية كل هذا كان فتحا جديدا في بناء المساجد بدأه عبد الملك في القدس ، وقد أدت هذه التجديدات الجوهرية في العمائر الاسلامية الى ابتكارات جديدة لابراز جمال العمارة الاسلامية ٠

● صورة لقبة الصخرة ●

● نبذة تاريخية :

عندما ذهب خليفة المسلمين عمر بن الخطاب لتسلم مفاتيح مدينة القدس أبدى رغبته في صعود قمة جبل موريا لزيارة الصخرة المشرفة حيث وجدها خرابا ، وسجد عمر بن الخطاب لله مصليا وشاكرا نعمته وقد شيد مكان صلاته فوق الصخرة مصلى من الخشب – على أنقاض هذا المصلى الخشبي شيد « عبد الملك بن مروان » البناء الحالي لقبة الصخرة ·

والسبب المباشر لبناء قبة الصخرة هو أنه بعد أن استولى الأمويون على الحكم واتخذوا دمشق حاضرة لهم وأصبح الشام ضمن الأمصار الاسلامية الخاضعة لسلطان الأمويين وقد كانت الحضارة البيزنطية منتشرة في بلاد الشام ولذلك نلاحظ أن فنون الطراز الأموي تأثرت كثيرا بالفن البيزنطي · وقد أعلن « عبد الله بن الزبير » نفسه خليفة على المسلمين في مكة المكرمة وكان ابن الزبير من أشد المعارضين لبني أمية وطال الصراع بين الطرفين وكانت حركة ابن الزبير وسيطرته على المكان المقدس عند المسلمين وهو

البيت الحرام بمثابة شوكة في ظهر بني أمية وقد سمى نفسه « العائذ بالبيت » نسبة لسيطرته على منطقة البيت الحرام وخشى بنو أميـــة من أن يؤثر ابن الزبير على المسلمين وتنتشر أفكاره بين حجاج بيت الله الحرام ويتبعوه أو يحملهم على مبايعته أثناء آدائهم مناسك الحج ـ فأمر عبد الملك بن مروان ببناء قبة الصخرة ليمنع المسلمين من زيارة الكعبة ويستبدلها بالصخرة المشرفة لارتباط المســـلمين الوثيق بها باعتبارها المكان الذي عرج منـــه رسول الله (صلى الله عليه وسلم) الى السماء ولارتباطها بالقبـــلة الأولى للمسلمين مقنعا اياهم بحديث رسول الله (صـــلى الله عليه وســـــلم) : « لا تشد الرحال الا لثلاثة مســـاجد : المسجد الحرام ومسجدي هـــذا والمسجد الأقصى » · وقد أراد عبد الملك بن مروان أن يكون المبنى رائعا يضارع في فخامته الكنائس البيزنطية التي كانت منتشرة في بلاد الشام وأن تضارع قبتها كنيسة القيامة ·

الوصف المعماري للمبنى :

١ ـ الاسطوانة :

أقيمت الاسطوانة الدائرية حول الصخرة المشرفة ، والصخرة طولها من الشمال الى الجنوب حوالي ١٧ر٥ متر وعرضها من الشرق الى الغرب حوالي ١٣ر٥ متر وارتفاعها يتراوح بين متر ومترين ، والاسطوانة هي التي تحدد المطاف حول الصخرة وقد أقيمت الاسطوانة من بائكة* دائرية مكونة من ستة عشر عقدا مدببا محمولة مباشرة على تيجان اثنى عشر عمودا وأربع دعائم بين كل دعامتين ثلاثة أعمدة وتم ربط كل عقد بواسطة عرق خشبي واحد ·

٢ ـ القبـــة :

تصبح الاسطوانة الدائرية من فوق العقود رقبة بها ستة عشر شباكا وتحمل القبة على هذه الرقبة وفوق القبة نهايتها الشهيرة وهي الهـــلال ، ويبلغ قطر القبـــة ٢٠ر٤٤ مترا وارتفاعها عن الأرض ٣٥ر٣ مترا واذا أضفنا ارتفاع الهلال الى ارتفاع القبة يكون الارتفاع الكلي ٣٩ر٣ مترا ·

والقبة مكونة من قبتين (داخلية وخارجية) مستقلتين عن بعضهما ويوجد بينهما مسافة تسمح بمرور انسان لسهولة التنظيف عن طريق باب موجود بالقبة الداخلية وكل قبة مكونة من ٣٢ ضلعا من الخشب يأخذ كل

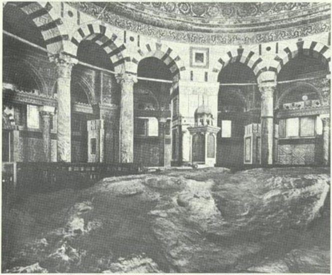

● الصخرة المشرفة من الداخل ●

ضلع شكل القوس والأضلاع مترابطة في الجزء السفلي منها بواسطة شكالات قطرية من الخشب عملت بطريقة شبكية لتقويتها ويربط الأضلاع من أعلى قرص مستدير من الخشب وكل ضلع مكون من ثلاثة عروق مثنية لتأخذ الشكل المنحني للقبة ويربط كل عرقان عند اتصالهما حزامان أفقيان من الألواح الخشبية ، وعلى الأضلاع الداخلية سمرت الألواح الخشبية من الداخل ثم غطيت بخيش مغرى ليتماسك عليه الجص الذي لصقت عليه الفسيفساء ذات الزخارف البديعة ، ومن الخارج سمرت الألواح الخشبية على أضلاع القبة الخارجية وغطيت بالواح من الرصاص ثم الواح من النحاس اللامع ، وتوجد مجراه للقبة من الخارج لتصريف مياه الأمطار يقابلها من الداخل حلية من كورنيشة خشبية •

٣ ـ الباٸكة* الوسطى :

وهي عبارة عن باٸكة مثمنة تحيط بالاسطوانة وبينها وبين الاسطوانة مطاف هو المطاف الداخلي والباٸكة الوسطى تتكون من أربعة وعشرين عقدا محمولا على ستة عشر عمودا وثماني دعاٸم ، بين كل دعامتين عمودان ويوجد (سند) يفصل بين تاج كل عمود وبداية العقد على خلاف عقود الاسطوانة المحمولة مباشرة على تاج العمود وربطت عقود هذه الباٸكة بواسطة عرقين من الخشب متجاورين وفوقهما مدماك من الطوب ·

وسقف هذا المطاف جمالوني يميل الى الخارج قليلا وهو على شكل مروحة وربط السقف بمدادات خشبية عرضية والسقف الجمالوني مغطى من الخارج بالخشب الذي وضعت عليه بعد ذلك الواح من الرصاص ·

٤ ـ المثمن الخارجي :

يوجد بين الباٸكة الوسطى والمثمن الخارجي مطاف آخر يحيط بالمطاف الداخل وهو أصغر منه نسبيا وتحد المطاف الخارجي من الخارج الحواٸط الخارجية للمبنى وسمي بالمثمن الخارجي بحيث يتمشى مع ميل السقف على تصريف مياه الأمطار عن طريق ٤٨ ميزابا يوجد في كل ضلع من أضلاع المثمن الخاري ٦ ميازيب وتوجد هذه الميازيب داخل دروة ، هذه الدروة ترتفع فوق أضلاع المثمن الخارجي بمقدار ٦ر٢ متر ·

ويوجد في كل ضلع من أضلاع المثمن الخارجي من الخارج سبعة تجاويف ـ الخمسة الوسطى من هذه التجاويف في كل ضلع عبارة عن شبابيك نافذة ومزدوجة كانت تشغل هذه الشبابيك من الخارج مصبعات الحديد وتشغلها من الداخل بلاطات جصية مخرمة برسوم هندسية مع استعمال الزجاج الملون لملء هذه الخروم ولم يتبق من البلاطات شيء ·

أما التجويفان الخارجيان في كل ضلع من أضلاع المثمن الخارجي فكانا غير نافذين وبذلك يكون في المثمن الخارجي أربعون شباكا نافذا خمسة شبابيك في كل ضلع ·

(*) الباٸكة صف من العقود المحمولة على اعمدة او دعاٸم ·

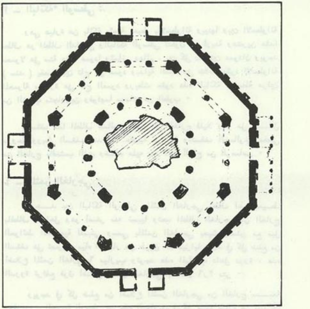

● مسقط افقي لقبة الصخرة ●

٥ ـ الأبـواب :

ويوجد في المثمن الخارجي أيضا أربعة أبواب محورية كل باب منها في اتجاه جهة من الجهات الأصلية وفتحة كل باب عرضها ٢ر٦ متر وارتفاعها ٤ر٣ متر ويوجد أمام كل باب من الأبواب الأربعة مدخل ، والمدخل مكون من سقيفة ذات سقف برميلي في الوسط أما أجناب السقيفة فمسطحة وقد تحولت ثلاث مداخل منها الى حجرات على جوانب المدخل ٠

وفتحة كل باب ذات عتب مسطح من الخشب ، وهذا العتب الخشبي مغطى بالبرونز ويخفف عنه عقد عاتق نصف دائري والمسافة الموجودة بين العقدين تكون الشباك الأوسط في الأضلاع التي يوجد بها أبواب ٠

٦ ـ الشبابيك النافذة :

يبلغ عدد الشبابيك النافذة في قبة الصخرة ٥٦ شباكا ـ يوجد في كل واجهة من واجهات المثمن الخارجي خمسة شبابيك بالاضافة الى ١٦ شباكا موجودة في رقبة القبة وكانت الشبابيك الداخلية في المثمن الخارجي أو الموجودة في رقبة القبة مشغولة ببلاطات رخامية وجصية مخرمة مع استعمال الزجاج الملون لملء هذه الخروم وكانت الزخارف الغالبة على هذه البلاطات المخرمة هي زخارف هندسية ونباتية وقد انعكس عن طريق هذه الشبابيك النافذة اضاءة هادئة ملونة بديعة داخل المبنى توحي بالخشوع وهدوء النفس ·

٧ ـ الأعمدة :

من الملاحظ على الأعمدة المستعملة في البناء أنها أعمدة منزوعة من مبان قديمة ونلاحظ أيضا أن أبدان هذه الأعمدة مختلفة في أطوالها وكذلك تيجانها ويمكننا أن نميز خمسة أنواع مختلفة من هذه الأعمدة ·

ونظرا لأن العمود يتكون من بدن ، هذا البدن مركب على قاعدة ويحمل في نهايته تاجا ـ ونظرا لأن الأعمدة المستعملة في المبنى مختلفة الأطوال فقد تم تعديل الفرق في الأطوال بينها عن طريق القواعد فنلاحظ أن قواعد الأعمدة مختلفة في أطوالها وذلك حتى تتناسب أطوال الأعمدة كلها ·

من هذا الوصف المعماري لقبة الصخرة نجد أنها صممت لتكون مزارا ومطافا للمسلمين حول الصخرة المشرفة وهو الهدف الأول والأساسي لبنائها ولكن لم يمنع ذلك من استخدامها كمسجد فنجد في النصف الشرقي من الضلع الجنوبي للمثمن الخارجي المحراب المجوف الذي يعتقد أنه أول محراب مجوف في الاسلام كما ذكرت سابقا ـ كما يوجد أيضا محراب آخر عبارة عن علامة على الحائط بأسفل الصخرة (في الكهف الموجود أسفل الصخرة) ·

● الزخارف :

لم يقل الانتاج الفني للزخارف في قبة الصخرة عن الانتاج المعماري فجاء المبنى على هذا النحو العظيم من العمارة والزخرفة ·

ويمكن أن نقسم زخارف قبة الصخرة الى :

١ ــ الزخارف الخارجية :

كسيت الجدران الخارجية حتى منتصفها بالرخام الأبيض اللامع ثم تبدأ بعد الكساء الرخامي زخارف الفسيفساء الرائعة التي كانت تغطي باقي الجدران من الخارج والتي استبدلت بعد ذلك بلوحات من القيشاني الملون في ترابيع رائعة الجمال .

٢ ــ الزخارف الداخلية :

(أ) كسيت جدران المثمن الخارجي من الداخل وأعمدة ودعائم البائكة الوسطى وكذلك أعمدة الاسطوانة الدائرية بالرخام الى ارتفاع أربعة أمتار وتبدأ زخارف الفسيفساء الملونة بعد هذا الكساء الرخامي وتجمع زخارف الفسيفساء كثيرا من الألوان منها الأسود والرمادي والبنفسجي والأزرق والأخضر والأحمر والذهبي والفضي وزخارف الفسيفساء مكونة من زخارف نباتية فمنها أوراق النباتات والفروع النباتية الملتوية والحلزونية وكذلك الأشجار والثمار والعناقيد وأواني الزهور ورسوم الأهلة وهناك أيضا الزخارف الهندسية وأشرطة من الكتابات الكوفية .

وقد جاءت كل هذه الزخارف النباتية والهندسية والكتابات والرسوم الأخرى في تناسق جميل ومتجانس الألوان ونفذت بغاية الدقة والمهارة بقطع الفسيفساء الملونة والمثبتة أفقيا عدا اللونين الذهبي والفضي فقد تم تثبيتهما بميل يعطي بريقا ولمعانا ويزيد من جمال المنظر وروعته .

(ب) زخارف القبة من الداخل :

أما القبة من الداخل فقد غطيت بطبقة من الخيش المغرى ثم كسيت بالجص وطليت بالألوان وذهبت وفوق الشبابيك من داخل القبة شريط من كتابة كوفية كتب بماء الذهب على أرضية زرقاء ، هذا الشريط من الكتابة محصور بين شريطين من الزخارف ويوجد أسفل هذه الشبابيك الموجودة في رقبة القبة ٥ أشرطة من الزخارف نفذت بالفسيفساء .

ويبلغ طول شريط الكتابة داخل القبة نحو ٢٤٠ مترا . وفي أيام الخليفة المأمون ادخلت بعض الاصلاحات على القبة وكان من هذه الاصلاحات

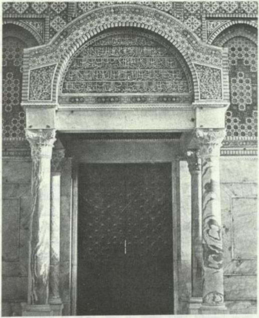

● نموذج للفن المعماري الاسلامي لاحد ابواب قبة الصخرة ●

تعديل هذه الكتابة رغبة في نسبة قبة الصخرة الى المأمون ولكن الصانع الذي كتب اسم المأمون في هذا الشريط الكتابي فانه فاته أن يغير تاريخ البناء وهو سنة ٧٢هـ ٠

(ج) عقود الاسطوانة :

أما عقود الاسطوانة الدائرية كسيت ببلاطات مربعة من الرخام الأبيض والأسود بالتبادل مما أكسبها رونقا وجمالا ٠

وتذكر لنا المراجع التاريخية الاسلامية التي تناولت الحديث عن قبة الصخرة وكذلك المؤرخون أن المهندسين المعماريين اللذين صمما هذا البناء البديع هما (رجاء بن حياء الكندي ، يزيد بن سلام) وهما من المسلمين وقد أشرفا على بناء القبة ومما يظهر براعتهما في هذا المجال أنهما عملا على أن يكون في دائرة دعامات القبة لفت بسيط وذلك لكي لا تحجب أعمدة الحلقة الثانية الواقعة أمام الداخل للمبنى الأعمدة الأخرى المقابلة لها في الطرف الآخر وبذلك يتمكن كل من يدخل القبة من أي باب من أبوابها الأربعة من رؤية كل ما بها من أعمدة ودعامات سواء ماكان منها أمامه مباشرة أو ماكان في الجهة المقابلة ٠

ومن الجدير بالذكر أنه توجد بجوار قبة الصخرة قبة أخرى صغيرة تسمى « قبة السلسلة » وهي محمولة على أعمدة وتشبه قبة الصخرة في تصميمها فهي تتكون من دائرة مركزية وسطى تحمل القبة ويحيط بهذه الدائرة مثمنان مغطيان بأسقف خشبية مائلة ــ وهناك اعتقاد بأن قبة السلسلة هي النموذج المصغر الذي بناه المهندسان المعماريان قبل الشروع في بناء قبة الصخرة وقد ذكرت بعض المصادر التاريخية أن « عبد الملك ابن مروان » كان قد ذكر للمهندسين تصوراته وتخيلاته عن المبنى فصنعا له نموذجا بحجم كبير نسبيا ألا وهو قبة السلسلة فلما رآه عبد الملك وأعجب به تم تنفيذ بناء قبة الصخرة على نمط النموذج ٠

ومن الجدير بالذكر أيضا أنه قد حدثت في قبة الصخرة تجديدات وترميمات كثيرة من أشهرها التجديدات التي كانت على يد الخليفة الظاهر ــ وكان الصليبيون قد حولوا القبة الى كنيسة وبنوا فيها مذبحا ولكن صلاح الدين الأيوبي أزال هذه المعالم وزين القبة وستر جدرانها بالرخام وبعد صلاح الدين اهتم ملوك بني أيوب بعمارة القبة وتجديدها وكذلك اهتم بترميمها وتجديدها سلاطين المماليك ومن أشهر هذه التجديدات ماكان على يد السلطان الناصر محمد ، واهتم بها كذلك العثمانيون ومن أشهر تجديداتهم مايعرف بتجديدات سليمان ٠

وهكذا توالت التجديدات والترميمات على قبة الصخرة وكانت دائما موضع الاهتمام والرعاية على مر العصور الاسلامية وقد كان آخر هذه التجديدات والترميمات ما بين ١٩٥٩ ــ ١٩٦٥ تحت اشراف بعثة من المهندسين والأثريين المصريين وأعيد تغطية القبة الخارجية بصفائح من

الألومنيوم المعالج بالترسيب الكهربي ليأخذ لونا ذهبيا جميلا الى جانب مقاومته للعوامل الجوية فأصبحت القبة تبدو مذهبة كما كانت في الأصل .

هذا قليل من كثير يمكن قوله في وصف الصخرة وقد كانت دائما موضع اهتمام الأثريين والمهتمين بالآثار الاسلامية وكذلك المؤرخين الذين اجمعوا جميعا على أنها من أجمل وأبدع العمائر الاسلامية التي خلدها التاريخ والباقية حتى الآن .

وقبة الصخرة احدى آثارنا الاسلامية الموجودة في القدس الشريف الرازح تحت الاحتلال العنصري الاسرائيلي الذي يستصرخ ضمير كل مسلم في أرجاء عالمنا الاسلامي بأن يهب لنجدته وتحريره من نير المعتدي الغاصب ومن ربقة الاحتلال الصهيوني .

المصادر والمراجع :

١ ـ العمارة في صدر الاسلام .
د. كمال الدين سامح

٢ ـ مجلة البناء .
العدد الأول ـ السنة الأولى

٣ ـ الفن الاسلامي .
أرنست كونل ـ ترجمة د. أحمد موسى

٤ ـ الفن الاسلامي
أبو صالح الألفي

٥ ـ تاريخ الفن عند العرب والمسلمين .
أنور رفاعي

٦ ـ فلسفة وفن .
د. زكي نجيب محمود

٧ ـ سر الزخرفة الاسلامية .
د. بشر فارس

٨ ـ الفن والمجتمع .
هربرت ريد ـ ترجمة د. فتح الباب عبد الحليم

٩ ـ الرسوم الهندسية للعمارة الاسلامية .
حسن عبد الوهاب

10. CRESWELL., Early Muslim Architecture.
11. COMBE, SAUVAGET, WIET, :
Répertoire chronologique' Epirapkie Arabe.